

قراءات تاريخية لتطور الفكر المقاولاتي

تمهيد:

أصبح موضوع ريادة الأعمال وإنشاء المؤسسات يحتل حيزا كبيرا من اهتمام الحكومات والعديد من الدول، خاصة مع تزايد المكانة التي تحتلها المقاولات في اقتصاديات هذه الدول، كما أن الدخول إلى عالم الأعمال يعد خطوة مهمة جدا في حياة الفرد خاصة إذا تعلق الأمر بطرح منتج جديد مبتكر، فحتى لو كانت الفكرة جيدة وكان الفرد يمتلك مهارات وقدرات مقاولاتية إلا أن هناك بعض العراقيل التي يمكن أن توقف أو تأجل مساره نحو المقاولاتية.

تهدف هذا الدرس الى عرض مختلف المساهمات التي ترجمت تطور الفكر المقاولاتي، باعتبار أن المقاولاتية من أكثر المواضيع التي أثارت جدلا واسعا لدى المنظرين، لتعكس مبادرة فردية ينتج عنها شكل تنظيمي له تأثيره على البيئة المحيطة، يشكل كل من الفرد والمنظمة والبيئة ثلاث مجالات لتحقيق المقاولاتية، وأن فهم ميادينها يتم من خلال دراسة السياق التاريخي لكل من المقاول والشكل التنظيمي الذي يؤسسه، وبالتالي يعالج هذا المقال المقاولاتية من خلال نظرة عدة تخصصات لها تطورت عبر التاريخ.

يرجع اختلاف الاهتمامات المتعددة التخصصات التي عالجت تطور الفكر المقاولاتي الى دور المقاولاتية الذي تطور عبر التاريخ والذي لا يقتصر على رفع مستويات الإنتاج، وزيادة العائدات الناتجة عن نشاط المبادرات المقاولاتية الجديدة، بل يتعداه ليشمل دورها في تجديد النسيج الاقتصادي من خلال تعويض المبادرات الفاشلة وإعادة التوازن للأسواق، بالإضافة الى دورها في تشجيع الابتكارات الجديدة، ليمتد تأثيرها ويشمل حتى المؤسسات القائمة.

1- المحطات التاريخية التي ساهمت في تطور الفكر المقاولاتي :

ثلاثة أسئلة عامة تم طرحها سنة 1990، يمكن من خلالها تلخيص مراحل البحث في موضوع المقاولاتية:

-ماذا يحدث عندما يتصرف المقاول؟

*** What happens when entrepreneurs act ?**

وهو السؤال الأول الذي يتضمن السلوك المقاولاتي أو ما تطلق عليه الأدبيات، خاصة الأنجلوسكسونية منها بالروح المقاولاتية، وقد حاول علماء الاقتصاد الإجابة عليه من خلال الاهتمام بدراسة وظيفة المقاول في الاقتصاد.

-من يقوم بالسلوك المقاولاتي؟

***Who do entrepreneurs act ?**

وهو السؤال الثاني الذي يستعرض شخصية المقاول ويأخذ بعين الاعتبار أهمية المتغيرات البيئية التي تحيط به، والاجابة على السؤال تقع في دائرة اختصاص عماء السلوك، علم النفس وعلوم أخرى.

وأخيرا السؤال الثالث "كيف يتم السلوك المقاولاتي؟

*** How do entrepreneurs act ?**

سؤال يدفع الباحثين للاهتمام بالذي يقوم به المقاول وخصائص المبادرات المقاولاتية عندما يتعلق الأمر بإنشاء مقولة، والاجابة عليه اهتم بها علماء التسيير. وعليه ومن خلال الأسئلة الثلاث السابقة، يتشكل تشابك لعدة مقاربات وتخصصات تتجسد في ثلاث عصور:

-عصر الاقتصاد the economics era انطلاقا من 1870 إلى غاية 1940

- عصر العلوم الاجتماعية the social sciences era من 1940 إلى غاية 1970

- وأخيرا عصر الدراسات الإدارية the management era من 1970 إلى الوقت الحاضر.

ثلاث أسئلة تم طرحها سنة 1990 يمكن من خلالها تلخيص مراحل البحث في موضوع المقاوالاتية



يمكن تحليل أهم مراحل تطور الفكر المقاولاتي الواردة في الشكل السابق باختصار من خلال المراحل التالية:

1. التطور المبكر للفكر المقاولاتي:

اكتسب المقاول على مر التاريخ عدة وجوه ولعب عدة أدوار قديمة قدم تأسيس المقايضة والتبادل بين أفراد المجتمع، وبالمقابل أعطي للمقاول دورا محددا لكل فترة تاريخية، اذ تمتع بمكانة خاصة في المجتمع والاقتصاد، ليتطور تدريجيا ويصبح الممثل الرئيسي للرأسمالية. فهو التاجر في القرن السابع عشر، المقاول الصناعي في القرن الثامن عشر، المقاول الأجير في نهاية القرن التاسع عشر، واليوم هو مقاول اجتماعي على الرغم من أن قدرته على المبادرة محدودة مقارنة بالمؤسسات الكبرى.

1-1 المقاول التاجر والمغامر:

كان الفكر الاقتصادي منذ القدم يتمحور حول فكرة أن أساس النشاط الاقتصادي نشاط بشري وأن العملاء الناشطين في هذا المجال ينقسمون إلى فئتين: الفئة القائدة والفئة التابعة، وبالتالي وكما هو معروف حاليا، أن المهارات المقاولاتية كانت دائما قريبة ومصطفة مع جودة القيادة. تبنت أولى الدراسات التي تناولت الاقتصاد السياسي عام 1616 المقاول على أنه "الفرد الذي يمضي عقدا السلطات العمومية لضمان إنجاز أعمال مختلفة أو للقيام بمهمة أيا كانت، وبالتالي يمكن للمقاولين أن يكونوا التجار والمغامرين الذين يستفيدون من المخاطر في التجارة ليبرز بشكل أكبر المقاول التاجر، وتناول العديد من المؤلفين في هذه الفترة موضوع المقاول، خاصة نظرية المقاول التي أسست سنة 1697، من طرف دي. ديفوي D. Defoe مؤلف "Robinson Crusoe"، والذي ميز بين نوعين من المقاولين، المقاول الأمين- المنشأ والمقاول غير الأمين- المخادع، حيث يرى أن المقاول هو الذي يعمل على إنشاء مشاريع باستخدام ابتكارات تقنية، والذي يتمتع بالجانب الانفرادي والحرية.

2-1-المقاول عند ريتشارد كونتيون:

يعتبر ريتشارد كونتيون (1680-1734) Richard Cantillon، المصرفي الايرلندي الأصل ورجل الأعمال الذي عاش في باريس، أول اقتصادي اهتم بالمعالجة النظرية للمقاول واعطاء معنى اقتصادي أكثر دقة للمقاولاتية، ففي : كتابه المعنون بـ **Essai sur la nature du commerce en général**، الذي حرره بين سنتي 1716 و1734 ولم ينشر حتى سنة 1755، خصص الفصل الثامن منه لتحديد خصائص هذا المقاول، لينهي هذا الفصل بمبدأ أن كل مقايضة ودوران لنشاط الدولة هو مبني على روح المبادرة والقيادة لهؤلاء المقاولين.

هو الكتاب الذي لخص المبادئ التي تقوم عليها الأسواق الاقتصادية الناشئة، حقوق الملكية الفردية والترابط الاقتصادي، وميز بين ثلاث طبقات من العملاء الاقتصاديين: ملاك الأراضي landowners، المقاولون أو المتعهدون undertakers والأجراء الممثلين للطبقة الدنيا hirelings. وفقا لكونتيون، فكل من يعمل على إنتاج أو شراء سلع بسعر معين وبيعها للحصول على سعر غير مؤكد وبالتالي الحصول على دخل غير ثابت ينتمي لفئة المقاولين الذين يقودون عملية التبادل في الأسواق في إطار تحقيق الربح، باتخاذ القرارات التجارية لمواجهة حالة عدم اليقين أو ما يطلق عليها باللاأكادة Uncertainty،

2-المقاول في العصر الاقتصادي:

2-1-المقاول حسب فرانك نايت:

في أواخر القرن التاسع عشر، وجدت النقاشات الأوروبية حول موضوع المقاولاتية جمهورها في الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت بعد نهاية الحرب الأهلية عام 1865 في طريقها لتصبح قوة صناعية كبرى، وهي النقطة التي انطلقت منها نقاشات اقتصادي الولايات المتحدة الأمريكية حول موضوع المقاولاتية، كان "الخطر- اللاأكادة أو عدم اليقين the risk- uncertainty" في وقت لاحق الموضوع الذي تبناه الاقتصادي الأمريكي فرانك أتش نايت (1885-1972) Frank H.Knight ضمن سياق الفكر النيوكلاسيكي، حيث اعتبر نايت المقاول الشخصية الرئيسية في النظام الاقتصادي. تلخصت مساهمات نايت في بناء النظرية المقاولاتية من خلال تأمين المخاطر أو المخاطر المؤمنة insurable risks و اللاأكادة أو عدم اليقين غير المؤمن non- insurable uncertainty،

فالمخاطر ترتبط بالأحداث المتكررة المعروفة احتمالاتها من خلال الخبرات السابقة، في حين الغموض عدم اليقين أو اللاأكادة تتعلق بالأحداث الفريدة التي لا يمكن تقدير احتمالاتها بشكل دقيق، أيضا عمل على وضع نظرية للربح تربط اللاأكادة غير المؤمنة بالتغير الاقتصادي السريع واختلاف القدرات المقاوالاتية *entrepreneurial ability*.

2-2-المقاول حسب جوزيف شومبيتر:

يعتبر جوزيف شومبيتر (1883-1950) Joseph Schumpeter على الأرجح أكثر الاقتصاديين الذين عرفوا باهتمامهم بموضوع المقاوالاتية في بداية القرن العشرين، عملت نظريات جوزيف شومبيتر الاقتصادية على التوحيد بين ظاهرتين مهمتين من ظواهر حركة الأنظمة الاقتصادية التي ركزت عليهما الدراسات، ألا وهما: دورة الأعمال وتغيرات التكنولوجيا والإنتاجية، ثم اعتبر دورات الأعمال نتاجا ثانويا للتقدم المتقطع في التكنولوجيا.

وفسر ذلك في المقاول الذي هو وكما وصفه سبب التغير الباطني في النظام الرأسمالي، باعتبار أن التغير في الحياة الاقتصادية يبدأ وبصورة دائمة بأعمال فرد قوي ثم ينتشر في بقية الاقتصاد. وبالحرف الواحد يقول شومبيتر أنه "المحور الذي حوله يدور كل شيء"، ويضيف قائلا ان الذي يدفع المقاول ليس المال، وإنما الابتهاج بالخلق والحلم بخلق إمبراطورية، لتكون النتيجة أن المقاول بطل العملية الرأسمالية ومبدع تطوراتها المتغيرة وليس المؤسسات الاجتماعية. أدى المقاول في نظرية شومبيتر الخاصة بالتطور الاقتصادي دورا أساسيا، فهو البطل المغوار الذي بشرح ذلك التطور، وهو الذي يغير مجددا ما يسميه شومبيتر التدفق الثابت، أي "نموذج العملية الاقتصادية غير المتغيرة والتي تتدفق بمعدلات ثابتة في الزمن وتعيد إنتاج نفسها".

2-3-مقاول المدرسة النمساوية:

ترجع أصول المدرسة النمساوية إلى جامعة فيينا، ويشير مصطلحها إلى نهج خاص في علم الاقتصاد نشأ في سبعينات القرن التاسع عشر، وإلى الاقتصاديين الذين يتبعونه في أرجاء العالم والذين يؤمنون بأن كل الأحداث الاقتصادية تنبع من قيم الأفراد المعنيين واختياراتهم وظروفهم والتي هي أساس الظواهر الاقتصادية كالعرض، الطلب، السعر والسوق.

حين يتحدث النمساويون عن المقاولين أو "المضاربين" فإنهم لا يضعون في أذهانهم صورة الرأسماليين المتأنقين المتلاعبين فبسبب الغموض الحتمي بشأن المستقبل، هم يعتبرون كل الأفعال

مضاربة، إن كل شخص هو مقاول بشكل ما يسعى لاستخدام مهارته وموارده في اقتناص مكاسب مستقبلية، وهذا ينطبق على العمال الذين يلتحقون بدورة تدريبية على أمل تحسين فرص عملهم تماما مثلما ينطبق على مديري الأعمال الذين يبنون المصانع أو المساهمين الذين يتاجرون بالأوراق المالية.

3. المقاول في عصر العلوم الاجتماعية (1940-1970):

أولى اهتمام مفكري علم الاجتماع بالمقاولاتية بالنسبة لنظريات علم الاجتماع، تعود إلى أعمال ماكس فيبر (1864-1920) Max Weber، العالم الألماني في الاقتصاد والسياسة وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة.

بالنسبة لأفكار فيبر عن موضوع المقاولاتية لا يمكن ايجادها في جزء معين من أعماله إنما في العديد منها، كان الهدف الرئيسي لفيدر هو شرح كيف يتغير النظام الاجتماعي من وضع واحد وثابت إلى آخر، وبالخصوص التركيز على "القيادة الكاريزمية charismatic leadership" -النوع الخاص من الأفراد الذي لديه/ها القدرة على جعل آخرين يتبعونه/ها- وما له/ها من دور هام في إحداث هذه التغيرات.

4- المقاول في عصر إدارة الأعمال:

تميزت فترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي بتغيرات اقتصادية وسياسية كبيرة مست المجتمع، انتشرت فيها تكنولوجيات حديثة أحدثت تغيرات في الهيكل الصناعي مما أثار أسئلة حول كفاءة أداء الشركات الكبيرة الحجم، نتيجة لذلك تطورت المواقف اتجاه المقاولاتية والمبادرات الصغيرة الحجم، بالإضافة إلى أن المقاولاتية توطدت في المناهج الدراسية، انطلاقا من هذه الخلفية أصبحت المقاولاتية وروح المبادرة موضوعا مهيمننا اندفع اليه الكثير من الباحثين في شتى تخصصات إدارة الأعمال، ويمكن تجسيد نمو المقاولاتية كحقل للبحث خلال الثمانينات القرن العشرين من خلال ثلاث مراحل أساسية تمثلت في:

1- مرحلة الإقلاع من خلال المساهمات الرائدة في المقاولاتية:

في البداية تبني الباحثون المهتمون بموضوع المقاولاتية في الوقت الذي توقفت فيه اهتمامات علماء النفس به، ومع ذلك اهتم الباحثون أيضا بتحليل المقاولاتية من عدة زوايا، مع إعطاء حداثة

للموضوع، والجدير بالذكر في هذا الصدد هو العمل المنجز من طرف ديفيد بريتش حول عملية خلق فرص العمل سنة 1979، فمن خلال مقاله أظهر بريتش أن أغلب الوظائف الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة تم انشائها من قبل المؤسسات الجديدة والصغيرة الحجم، وليس من قبل الشركات الكبيرة، وما كان للتقرير من تأثير هائل على جماهير الباحثين في موضوع المقاولاتية.

2-مرحلة النمو: بناء البنية التحتية والبحوث المتجزأة:

عرفت بدايات تسعينات القرن الماضي نمو هائل في البحوث في مجال المقاولاتية، من خلال الزيادة المعتبرة في عدد المجلات العلمية والندوات والبرامج التعليمية والدورات التي تمحورت حول موضوع المقاولاتية.

3-مرحلة البحث عن النضج كميدان للمناقشة وارتفاع الاهتمام النظري:

على مدى العقد الماضي، وبعد ما يقارب ثلاثين عاما من الدراسات المنهجية، كان مجال البحث حول المقاولاتية يبحث عن النضج، وأن بعض الخصائص لهذا المجال يمكن تحديدها من خلال:

- نقاشات عميقة حول المفاهيم الأساسية من المقاولاتية ورسم حدودها كمجال للبحث.
- إدراك أن المقاولاتية مجال معقد، وغير متجانس وظاهرة متعددة المستويات.
- عودة الجوانب الاقتصادية والبيكولوجيا لمعالجة المقاولاتية كظاهرة.

خاتمة:

تعتبر المقاولاتية مجال بحث متعدد التخصصات، وانطلاقا مما سبق يمكن تلخيص مراحل البحث في موضوع المقاولاتية من خلال الدراسات التي ركزت على السلوك المقاولاتي، الروح المقاولاتية (عصر الاقتصاد)، شخصية المقاول وممارساته (عصر العلوم الاجتماعية) وخصائص المبادرات المقاولاتية (عصر الدراسات الإدارية)، وأن الأدبيات القديمة أنسبت عدة وظائف للمقاول الذي عمل على تطوير نفسه، ساهمت في تحديد تعريف خاص به من جوانب عدة، وعليه يمكن القول ان مقاول اليوم هو المتعهد الذي يبتكر، يطور ويسير مشروعا متحملا مخاطر من أجل تحقيق أرباح محتملة.